

حقيقة الاحلام

قال السروليم هيلتون (١) : ان الامر الذي يستلزم البحث في قوة الذاكرة هو كيف ننسى لا كيف نتذكر ، اي ان كل مدركات الانسان يجب ان تحتفظ في ذاكرته وان نسي شيئاً منها فلنسيانه سبب يحسن البحث عنه . فظن قوله حينئذ من قبيل الوم او المبالغة ولكن المباحث الجديدة تميل الى تأييده . والظاهر ان الانسان يتناسى في الغالب اكثر مما يتسى اي ان القوة المتحركة او المتصرفه في ذهنه تصرفه عن تذكر الامور النافعه او المنكرة او التي لا علاقة لها باعماله ومطالبه او بما يفكر فيه وهو في حال اليقظة فتراه يصرفها عن ذهنه كلاً تلقاً او تشغل باله ، فاذا اقتطع عن العمل ونام ونامت القوة المتحركة اطلق الضات للذهن فيمر على كل المحفوظات التي في دماغه بائتلاف الافكار ، فاذا اتفق انه رأى في نهاره فرساً سقط عن فرسه فقد يتذكر ذلك ليلاً وينبه فيه تذكره الفرس سياحةً سألها منذ سنوات وكان راكباً فرساً ويتذكر حينئذ اكثر مما مر به في تلك السياحة ومنه قرية مرتبها والناس جلوس في حانة ويقوده ائتلاف الافكار الى منظر رآه في مساه حيث كان الناس جلوساً في حانة اخرى يسكرون وخمام شجر بينهم ورجال الشرطة مهرونون للقبض عليهم وهم يلبسون القديعة المخالفة للملابس الشرطة في هذه الايام ، وتنتقل به الذاكرة الى ازياء الملابس ولاسيما ملابس النساء وتغيرها من يوم الى يوم وهلم جرا . وهذا هو الحلم ، واذا استيقظ حينئذ فقد يلى كل ما حلم به وقد لا يتذكر منه الا بعض حوادث سفره او بعض ما رآه من الازياء ، وقد يتكرر هذا الحلم مرة او بعضه كثيراً في نهاره ، كما ذكره بعض ما فيه وما يقع للانسان وهو دائم ليلاً يتبع له وهو يهجر نهاراً فتنتقل الذاكرة من موضوع كان يفكر فيه الى مواضع اخرى مرتبطة به ولو كانت الرابطة بينها طفيفه جداً

قال الفيلسوف برغصن : ان تكاليف الحياة تكاد تحجب عن بصيرتنا ونحن في اليقظة اكثر ما هو محفوظ في ذاكرتنا ذلكا تنظفنا عن الاهتمام بهذه التكاليف

(١) فيسوف السكتندي مشهور

واستلنا للنوم عشنا حينئذ في عالم الاحلام عالم الماضي سواء كان النوم طبيعياً او صناعياً . وقد قال البعض ان الاتصال بين اعصاب الحس والحركة يتقطع نوعاً زمن النوم . وسواء صح هذا القول او لم يصح فلا شبهة في ان المجموع العصبي يتمتع فعلة مدة النوم عمراً كان في اليقظة . ثم ان تنبه الذاكرة في النوم امر مشهور فقد نجح انا لسببنا بعض الامور ثم تذكرها تماماً ونحن نيام كأننا لم نكن في الماضي ونعود الى زمن الصورة وتكلم بلغات لسببنا انا كنا نعرفها . واغرب من ذلك ان الذين يكادون يعرفون غرقاً او اختناقاً ثم ينتعشون يقولون انهم تذكروا في تلك اللحظات القصيرة كل حوادث حياتهم الماضية فرأت امامهم سريفة حسب توأليها في الماضي (١) وقال في مكان آخره ان للذاكرة طبقات اعظمها طبقة تحوي كل تاريخنا الماضي وهي الطبقة التي تحدث الاحلام فيها ، انظر كتابة المادة والذاكرة صفحة ١٢٩

وإذا كان الامر كذلك اي اذا كانت كل حوادث الحياة محفوظة في الدماغ في طبقة مخصوصة منه ، وإذا كانت تكاليف الحياة تمننا ونحن في اليقظة من تذكر هذه المحفوظات كلها إلا ما كان منها مرتبطاً بهذه التكاليف كما قال برغن او اذا كانت القوة المتحركة تضطربنا الى حصر افكارنا فيما نحن آخذون فيه من اعمالنا واشغالنا اليومية ولا تبيح لنا العودة الى غير ما يتعلق بها إلا اذا كلنا واطلقنا العنان للخيال والاهام كما يحدث لساهي والهاجس فلا يجب اذا كنا ونحن نيام وقد انقطعنا عن العمل واستلنا عراحة نعود الى محفوظاتنا الماضية وتعلق بها وتعمل مثل ذلك اذا ضعفت سيطرة القوة المتحركة فينا كما يحدث على اثر مرض جسدي او عقلي

اصيب كاتب هذه السطور منذ بضع وعشرين سنة بالتهويد واشتد المرض عليه وظل حتى اشتد عليه اليأس واليأس في اليأس كما ذكرنا في حياواته وتذكر حينئذ كتاباً قرأه في صباه مراراً ولم يحط له ان يستظهره اما وهو في شدة هذا المرض فتذكر فصوله وجعل يتلوها فصلاً بعد فصل ليلة بعد اخرى . ومرت به ليال كثيرة وهو يتلو ذلك الكتاب او جانباً كبيراً منه . والآن نسي

(١) Bergson "Matter and Memory" 1913 page 290.

ما تذكره حينئذ من ذلك الكتاب وقصا يتذكر غير سطور قليلة من بعض فصوله . وهذا يدل على ان المعلومات قد تحتفظ كما في الذاكرة ولو بعد تذكرها وزد على ذلك ان قرة الاستدلال قد تكون والانان نأثم اقوى منها وهو مستيقظ . ولعل سبب ذلك كثرة ما يستطيع تذكره وهو نأثم من المقدمات التي يهل بها الاستدلال . وكذلك قرة الاستحضار والابتكار فتراه يقيم الادلة المتحصلة اذا كان منطقياً وينظم التعانيد العامرة اذا كان شاعراً ويحل المسائل الهندسية العويصة اذا كان رياضياً ويستنتج النتائج الثابتة حتى يكاد يتنبأ تنبؤاً ولذلك قال الاستاذ وليم جيس الفيلسوف الاميركي « ان عالم الاحلام هو عالمنا الحقيقي ونحن نيام لان العقل يتصرف حينئذ عن العالم المحسوس الى العالم غير المحسوس . والعالم عالمان عالم محسوس ندرکه في اليقظة وعالم غير محسوس ندرکه في النوم » ولعل الاستاذ جيس متطرق في هذا الباب . والحقيقة التي لا شبهة فيها ان الانسان قد يتذكر وهو نأثم اموراً كثيرة فيها وهو مستيقظ فيستنتج منها نتائج يجب ان مررتها جاءته بالهام والحقيقة عندنا انه كان عالماً بمقدماتها ولكنه نسيها في يقظة

وقد ظهر في اول هذا القرن كتاب للعالم سغمند فرود Sigmund Freud النحوي موضوعه تفسير الاحلام Traumbedeutung قال فيه ان كل الحوادث العقلية سواء كانت احلاماً او غيرها هي من افعال العقل . وليس فيها محل للصدقة بل هي نتائج مقدمات سابقة . وعندنا انه لا شيء يحدث في العقل صدقة بل كل ما يحدث فيه يكون نتيجة افعال سابقة فيه . وقال الاستاذ بير فيما كتبه عن هذا الكتاب في مجلة الاكتشاف ان بين محترفات الحلم الظاهرة ومحترفات العاطفة فرقاً كبيراً فاقدم عليك زيد ويقول انه حلمت ان زيد ان زاد عليه راقص منه انما هو انقسم الظاهر من الحلم وهو مؤلف من مراد كانت كلمة في دماغه مخفية عن الوحدان . وعندنا ان كل ما يحلم به الانسان مؤلف من امور مخفية في ذاكرته ترد على ذهنه وهو نأثم شيئاً شاذية محدودة مرجعها الى اثنين التذكر المباشر واكتلاف الافكار . فاذ نظرت الى الدواة التي امامك وانت تكتب مقالة مثل هذه فرأيت انها من الزجاج فهذه بصورة التي رأيتها قبل مباشر ولكن اذا انتقلت افكارك من الزجاج الى احتساب عمل الخازن في الاسكندرية

وكسرم الراح الزجاج الكبيرة ومطاردة البوليس لم مشاةً وفرساناً وما شجر
بينهم من الخصاص وقتل بعض المعتصمين وقيام الجرثمد على البوليس — فبذه الصور
كلها اوردها الدهن باثلاف الافكار من محضرات الذاكرة وكان زجاج النواة
محرراً لها. ولو رأيت هذه الدواة قبل حدوث الاعتصاب لشار اليه وتكبير
الراح الزجاج ما خطرت لك هذه الخواطر. واذا كنت متبهاً لملك شديد الانتباه
فبذه الخواطر لا تخطر لك لاعتفالك به وان خطرت في عقلك قوة تنبها
وتردك الى التفكير فيها تكتب. والحق أننا هنا هذه الصور الآن لتسللاً ونحن
نكتب هذه السطور اذ كان غرضنا ضرب مثل لان القوة المتحركة منتبهة تصدنا
عن الهيام في نياتي الخيال. اما لو كنا نياماً لنامت هذه القوة وانتقلنا من الدواة
الى ما لا حد له من الحوادث الغريبة على ضعف ما بينها من الروابط

ثم ان المؤثرات الخارجية والداخلية تؤثر في التأم والهاجس فاذا وقع القطاء
من سابقه فبردت فدهاه حلم انه دخل على قوم حافياً او من غير سراويل فنجعل
من ذلك. واذا كان فزاشة رثيراً يحمل جسمه من غير ان يتعبه حلم انه عطار. واذا
ثقل الطعام على معدته وانخه حلم ان كابوساً ركب على صدره يريد خنقه. واذا
كانت يده مرتفعة ثم اوتخت عضلاتها فهبط حلم ان جسمه كله هبط من
مكان عال. وهذه المؤثرات كلها تلبه ذهنه الى محضرات كثيرة في ذاكرته
باثلاف الافكار او تتولد فيه افكاراً جديدة مما يسهل عليه تصور او استنتاجه
وخلاصة ما تقدم ان الاحلام والهواجس نابعة عن محضرات في السماغ ينتبه
العقل لها بسبب مؤثر اثر فيه. ولا فعل من غير فعل ولا اثر من غير مؤثر

هذا ما امكن الوصول اليه بعد البحث تعني في حقيقة الاحلام بنوع عام.
ولكن ألا يحتسب ان يكون لبعض الاعداء سبباً آخر كالاتلام الزائدة في
كتب الاديان المختلفة التي تدرى اسبابها الى وحي او مكاشفة من الخلق او
ملائكة او قديسين. والجواب ان الاعداء الذين يسمونهم بالانبياء لا يسمونهم
علي اذا ثبت انها وقعت كما رويت ونحن لا نتوخى في المقتطف الا التعميل العلمي
للاحلام كما لا نتوخى الا التحليل العلمي للأمراض الجسدية والنفسية ولكل
الحوادث الطبيعية كوقوع المطر وحدوث البرق والرعد والعاصفة وخصب
المزروعات بالحرث والري والسماذ